سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

الكاتب، الناشط، المؤسسة

سهيل إدريس: مشروع مرحلة

ندوة من إعداد وتقديم: عبد الحق لبيض (مراسل الآداب في الغرب)

المشاركون: شعيب حليفي، عبد اللطيف محفوظ، ميلود العثماني، محمد معتصم

عبدالحق لبيض: نجتمع اليوم لنناقش مشروعًا نهضوياً عربياً أصيلاً شكّله رجلٌ عُرف بشيم التحدّي والمقاومة. كَتَبَ الإبداعَ في بدايات مسيرته الفكرية، لكنّه ـ كأيّ مثقف عضويّ مؤمن برسالةٍ تجاه قومه ولغته ـ راح يكتشف عوالمَ أخرى لتصريف مشروعه الكبير. لم يكن كاتبًا قنوعًا، بل مثقفٌ موسوعيٌّ عنيد يُشْبه المحاربَ الذي يعارك على كلّ الجبهات إحساسًا منه بقدسية الواجب.

إنّ استحضار تجربة إدريس المتعدّدة الجوانب، إبداعًا وتأليفًا معجمياً ونشرًا وتأسيسًا لمنابر ثقافية ونضالاً قومياً، هو استحضارٌ لزخم مرحلةٍ تاريخية تأسيسية حافلةٍ بالآمال والآلام. وفي سياق هذه المرحلة لمع نجمُ سهيل إدريس، ليحملَ مشروعًا كبيرًا، هو مشروعُ تربية الأجيال العربية والسهر على تكوين ذائقتها الفكرية والجمالية والنضالية؛ مشروعُ بناء الذات لمواجهة التحدّيات: تحدّياتِ الذات لذاتها والعمل على التخلّص من إرثها الثقيل الذي يكبّلها، وتحدّياتِ الذات لاكراهاتٍ خارجيةٍ فرضتْها شروطُ مرحلةٍ اتّسمتْ بسلب إرادة الشعوب، وتحدّياتِ الذات في ضرورة التعامل مع آخرَ ليس شرّاً كلُّه. إنّها معادلاتٌ صعبة، لكنّها صُرفتْ في مشروع سهيل إدريس بذكاءِ المحارب ومسؤوليةِ المثقف الملتزم.

وتشاء الظروفُ أن يَرْحل عنّا سهيل إدريس والأمةُ في حال من التشرذم والهوان والاحتلال، رحل والمزادُ مفتوحٌ لبيع قيم الالتزام والشرف والحقيقة والاستقلالية التي دافع عنها واعتبرها «الكتابَ المقدّسَ» للمثقف العربي، ليحمّلنا، جميعًا، ذنوبَ عصرنا، وليسألَنا التطهّرَ منها. لكنْ، في المقابل، رحل الأبُ سهيل وهو مزهوٌّ بانتصارات المقاومة، وبارتفاع أصوات الممانعة، وببروز جيلٍ جديدٍ أَخَذَ على عاتقه مواصلةَ المعركة ضدّ «قامات» الاسترزاق الثقافي وصُنّاع الوهم «الديمقراطي.» ألم يبدأ الأبُ سهيل مجلةَ الآداب بمعارك ضدّ صنّاع الحلم الزائف و«الشحّاذين على عتبات الحكّام ومائدة الدول الكبرى»؟ ألم يغادرْنا والمعركةُ على أشدّها ضدّ الخصوم أنفسِهم، تقودها ثلّةٌ من الشباب المثقّف الذين تربّوا في كنف القيم التي انتصر لها؟

وعندما نجتمع اليومَ لنتدارس مشروعَ الدكتور سهيل إدريس، فلكي نستحضرَ دروسَ المرحلة التي أَسّس لها، ولكي نخطّ أيضًا طريقَ الأمل والمستقبل الذي لم يكن يُتْعبه المسيرُ في مسافاته الطويلة. ذلك أنّه، كما ذَكَرْنا، من طينة المحارب الذي لا يستريح إلاّ عندما يَفْتح العديدَ من الجبهات. وهو كذلك المبدعُ الذي أبدع فأجاد، فشَغَلَ الناسَ وأسالَ المدادَ؛ ولا أدلّ على ذلك من روايته النابضة حياةً، **الحيّ اللاتيني**، التي ما زال «يَسْهر الخَلْقُ جرّاها ويَخْتصمُ.» وهو الناشرُ الذي لم يتّخذْ من النشر وسيلةً للثراء، بل رآه مدخلاً لتحريك جمود الذائقة الجمالية، فراح يستكشف الأقلامَ الجديدةَ، إلى جانب احتضانه لروائع الروّاد، خالقًا بذلك تناغمًا جعل من دار الآداب مَعْلمًا ثقافياً تقدمياً فاق في إنجازاته ما أقدَم عليه العديدُ من المؤسسات الثقافية الرسمية.

ولم يكتفِ إدريس بكلّ هذا، بل أَدرك، بحسّه التنويري النهضوي، أنّ الرافعة الأساسية للثقافة العربية تقوم على إيجاد إعلامٍ يواكب تطوّراتِ الحركة الثقافية في كافة الأقطار العربية. وهنا جاء دورُ مجلة الآداب في استكناه بواطن الحركة الثقافية العربية، وتمثُّل قضاياها وهواجسها. لقد كانت مجلةُ الآداب، القابعةُ في أحد أحياء بيروت، الصوتَ الكاشفَ لهموم الفكر العربي من الماء إلى الماء، والمَعْبرَ الأساسَ إلى «النجومية الثقافية.» فشكّلتْ بذلك عروسَ مشروع سهيل إدريس، وساحةً للتصريف المباشر لمعاركه، وفضاءً لتصارع الأفكار.

ولأنّ «المعلّم سهيل إدريس،» بتعبير الأستاذ رشاد أبو شاور، محاربٌ شرسٌ، فإنّه أشدُّ ما يكون اعتناءً بجودة سلاحه. لهذا نجده مدافعًا عن اللغة العربية من غير تزمّت ولا شوفينية، معتبرًا أنها أساسُ بناء الذات القومية. فكان أن اهتمّ بالحقل المعجمي تصنيفًا وتأليفًا. وظلّ هذا الهاجسُ يسكنه حتى أورثه ابنَه الذي ينكبّ منذ أكثر من عقدَيْن على إنجاز **المنهل العربي ـ العربي الكبير**.

مشروعُ سهيل إدريس التنويري النهضوي واحدٌ، لكنّه متعدّد المداخل. وأتمنّى في لقائنا اليوم أن نحاول الإلمامَ بالجوانب المشرقة واللمّاحة في هذا المشروع.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
الكاتب، الناشط، المؤسسة

شعيب حليفي: سهيل إدريس مبدعٌ من طراز خاصّ. فقد بَصَمَ مرحلةً كاملةً، وبطرقٍ متعددةٍ تبيِّن إلى أيّ حدٍّ أَدرك أنّ التغيير في الثقافة العربية لن يتمّ له بالدخول من بوّابة جنسٍ تعبيريّ واحد (السرد). فاختار مداخلَ أخرى سعى فيها إلى إبراز دوره كمثقفٍ عضويّ أساسيّ في الجغرافيا الثقافية العربية طوال السنوات الخمسين الأخيرة التي عاشها. ومن هذه المداخل أنه كان روائيّاً وقاصّاً. كما كان مسؤولاً ثقافيّاً، وهو ما تمثّل في مجلة الآداب ودار الآداب اللتين اجتمع حولهما عددٌ كبيرٌ من المثقفين العرب وما يزالون. يضاف إلى ذلك أنّه مثقفٌ حركيٌّ سهر، إلى جانب ثلّة من رفاق دربه، على إنشاء مؤسسات ثقافية وطنية وقومية، مثل اتحاد الكتّاب اللبنانيين والاتحاد العامّ للكتّاب والأدباء العرب. كلُّ هذه المداخل تؤكّد أنّ إدريس لم يكن مثقفًا عاديًا، وإنما كان له حسُّ الاختيار. فقد كان ذا خطّ تحريريّ متفاعلٍ مع أسئلة العصر الذي كان يعيشه بكلّ تفاصيله، ومرتهنٍ للمستقبل بكلّ ما يحمله من تطلّعات نحو التغيير. فهو رَفضَ نشرَ نصوص إبداعية ونقدية، وقَبِلَ أخرى، بناءً على تقدير الجرّاح الذي يرى أبعدَ ممّا تَفرضه عليه لحظةُ الجراحة: رفض، مثلاً، نشرَ **الخبز الحافي** لمحمد شكري، لكنّه - وبجرأة كبيرة وشجاعة نادرة - غامر بنشر **أولاد حارتنا** لنجيب محفوظ. ولقد كان، بحسّ المثقف العضوي ذي الرؤى الثقافية، لا يغلِّب الجانبَ الإيديولوجي على حساب الجانب الجمالي والثقافي.

عبد اللطيف محفوظ: سهيل إدريس من المشاريع الثقافية العربية التي تتجدّد بتجدّد العصور الثقافية. وعندما عدتُ إلى قراءة تجربته الثقافية، وجدتُ ثلاثَ قضايا لا بدّ من مقاربتها اليوم. **أولاً**: بدأ سهيل إدريس تكوينَه في مناخ دينيّ، وبعدها تحوّل إلى الوجودية، التي اتّخذها وسيلةً لدعم أفكاره القومية؛ أيْ أنّه **لم يقع ضحيةَ تأثير الوجودية**، ولا ظلّ سجينَ سياقاتها الثقافية، **وإنما مَتَحَ منها ما يناسب مشروعَه الثقافي**. وهذه، لعمري، ميزةُ المفكّرين الكبار الذين ينفتحون على المفاهيم والمشاريع الفكرية فيستَقون منها ما يناسبهم من غير أن يقعوا تحت تأثيرها السحري. وعليه، فقد كان إدريس صاحبَ مشروع، أكثرَ منه مروِّجًا لمذهبٍ ثقافيّ.

ثانيًا: سهيل إدريس كتب في بدايات حياته قصصًا وروايات، ثم توقّف عن الكتابة الإبداعية، ولم يصالحْها إلاّ في فترة متأخّرة عندما كتب الجزءَ الأول من سيرته الذاتية المثيرة والمتميّزة. وحين أردتُ فهمَ أسباب هذا الانقطاع الطويل، عدتُ إلى رواياته وقصصه، فوجدتُها كلَّها تؤطّر داخل قيم كبرى محددة. فهو في **الحيّ اللاتيني** يجيب عن سؤال الأنا والآخر، كما هو حالُ مجايليه الذين انشغلوا بهذا السؤال الحضاري الكبير استجابةً لأوضاعٍ حتّمتْ مقاربةَ ذلك السؤال. وفي **الخندق الغميق** انشغل بقيم مرتبطةٍ بطبيعة التحوّلات الداخلية للوطن، هو كذلك، يعيد صوغَ قيمه الكبرى من خلال الانتقال من العالم التقليدي إلى العالم الحديث. أما **أصابعنا التي تحترق** فتمثّل انعكاسَ الوحدة المصرية - السورية على المثقف العربي. من خلال هذه الموضوعات، **يبدو أنّ سهيل إدريس لم يكتب إلاّ استجابةً لإكراهاتِ قضيةٍ كبرى. لهذا يحقّ لنا أن نتساءل: هل توقُّفُه عن الكتابة الإبداعية مرتبطٌ بانحسار القضايا الكبرى؛ أمْ أنّ الأسئلة ذاتَها ما زالت مستمرةً، فلا جدوى من الكتابة إذنْ؟**

ميلود العثماني: صُدمتُ، كما صُدم الكثيرون، بموت سهيل إدريس. ذلك لأنّ موته موتُ جيلٍ بكامله، خاصةً أنّه تزامَنَ مع رحيل اثنين من أبرز كتّابنا طيلة السنوات الخمسين الماضية: الناقد رجاء النقّاش، والروائي العراقي المنفيّ فؤاد التكرلي.

بموت سهيل إدريس أَضعْنا مكتبةً. وليس في التشبيه مبالغة، إذ إنّ ما قام به لم تستطعه كلُّ وزارات الثقافة العربية مجتمعةً. فما نَشرَه في مجلّته وداره يشكّل اليومَ تراثًا ثقافيّاً يحقّ للعرب الافتخارُ به. لم يَدخل إدريس عالمَ الثقافة من أجل تحقيق شهرة ذاتية، بل ليحقّق مشروعَه التنويري الطلائعي والتقدّمي. لقد كان صاحبَ رسالةٍ كبرى يَصْعب اليومَ اختزالُها في إضاءة ذاته الإبداعية والثقافية، بقدْر ما هي رسالةٌ جماعيةٌ حملها على كتفيه خمسين سنةً. ذلك لأنّ سهيل إدريس قوميّ عربيّ حتى النّخاع، لم يكتفِ بالتهليل لشعاراته، ولم يتاجرْ بها في محافل السلطان أو على بوّابات السفارات، وإنما وعى مهمتَه بإتقان، فأَدركَ أنّه محاربٌ في معركةٍ لا حدود لجبهاتها. لذا راح يُعدّ العدّةَ لذلك من خلال سهره الدؤوب على تأسيس مجلة الآداب ودار الآداب لتكونا لسانَ حال صاحبهما وثلّةٍ من رفاقه الذين آمنوا بالخط التحرري النضالي الذي نادى به بعيْد رجوعه من فترة الدراسة في فرنسا. كما أسهم في تأسيس اتحاد الكتّاب اللبنانيين صحبةَ عمالقة الفكر القومي العربي أمثال قسطنطين زريق، والاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب الذي كانت له فيه جولاتٌ ومواقفُ مشرّفة. **كلُّ هذه المؤسّسات كان إدريس يشارك فيها من منطلق أنها فضاءٌ لتحقيق مشروعه الوحدوي الكبير** الذي ظلّ يؤمن به إلى أن أغمض عينيه، تاركًا لنا تراثًا لا بدّ من العودة إليه وقراءته بكلّ تأنٍّ تقديرًا ووفاءً لرجلٍ أعطى أكثرَ مما أخذ. وإلى أن يتحقّق هذا المشروع، أغتنم الزمنَ المخصّصَ لي هنا لأعرض بعضَ الخصائص الأساسية التي تسِم شخصيةَ هذا الأديب والمفكّر والناشر والمناضل الحركي.

١ - الموسوعية: يمكن القولُ إنّه، بموت سهيل إدريس، تكاد الساحةُ الثقافية العربية تخلو من المثقف الموسوعي الذي كان من سمات المرحلة الثقافية العربية في أواسط الخمسينات وبدايات الستينات. لقد كان إدريس نموذجًا للمثقف الموسوعي الذي له أكثرُ من ساحةٍ للعراك والجدال. وهو ما أكسب شخصيتَه تقديرًا خاصّاً قلّ نظيرُه اليوم في أوساط مثقفينا.

٢ ـ الحداثة المعتدلة: في وقت كانت فيه الحداثةُ موضةَ العصر أو ڤيروسًا فتّاكًا خَلق جدلاً وصدامًا فكريين واجتماعيين حادّين، كان لسهيل إدريس موقفٌ غايةٌ في الاعتدال والاتّزان. فقد **انتصر لحداثةٍ لم تتنكّر لواقعها ولمحيطها**. وكان محقِّقُ هذه المعادلة، في زمن سهيل إدريس، كالقابضِ على الجمر.

٣ ـ الدفاع المستميت عن اللغة العربية: إنّ مشروع القومية العربية الذي نادى به إدريس وأفنى فيه ذاتَه لم يكن ليستقيم من دون العودة إلى وعاء الحضارة والثقافة العربيتين، ونعني به اللغةَ العربية. فلم يكن من شيء يُخْرج سهيلاً من صورة الأديب المتواضع والمرن والبسيط سوى تبخيس اللغة العربية وإهمالها. لذا **لم ينسَ، وهو في معمعة نشر قيم القومية العربية، أن يوليَ اللغةَ العربيةَ العنايةَ الكافية**، ويسهم في تطويرها وانفتاحها، من خلال المنحى المعجمي الذي أخذ منه جهدًا كبيرًا، فأفاد به الثقافةَ العربيةَ وضخّ فيها روحًا جديدة.

٤ ـ صناعة المواهب الإبداعية: ليس الناشر في الثقافة الأوروبية عامةً مجردَ وسيطٍ أو تاجر، وإنما هو صانعٌ للمواهب ومستقطِبٌ لها ومكتشِفٌ لخفاياها. وذلك هو ديدنُ الناشر وصاحبِ أعرق دار للنشر في العالم العربي الدكتور سهيل إدريس، الذي **لم يكتفِ بتلقّي المخطوطات الإبداعية من مشاهير الأقلام، بل راح يجول في الأقطار العربية يحاور ويجادل ويكتشف الأصواتَ الواعدة**. فكان أنْ أغنى الساحةَ الإبداعيةَ العربية بأسماء تدين إلى اليوم بدوره في اكتشافها ودعمها. وأكتفي في هذا المقام بأن أذكر اسمين كان لسهيل كلُّ الفضل في تقديمهما للقراء العرب: صلاح عبد الصبور وأمل دنقل.

٥ ـ الإجابة عن الأسئلة الكبرى: سهيل إدريس لم يكتبْ من أجل الإفضاء بأسرارٍ ذاتية، بالرغم من أنّ تلك الفترة كانت فترةَ الاحتفاء الشديد بالذات من خلال أصواتٍ فاعلة، وعلى رأسها إدوار الخرّاط، وإنما **كتب ليجيب على إشكالياتٍ جوهريةٍ في الفكر والثقافة العربيين**.

٦ ـ الريادة النهضوية: لا يمكن الحديثُ عن مشروع إدريس من دون ان نخندقه ضمن المشاريع النهضوية الكبرى التي شهدها العالمُ العربي طيلة العقود الفائتة.

٧ ـ التنظير: سهيل إدريس كان صاحبَ رؤية تتحكّم في كلّ ما يسهر عليه من إنتاج. وفي هذا الصدد يمكن اعتبار مجلة الآداب الفضاءَ الأكثرَ إبرازًا لخصائصه التنظيرية. **فافتتاحياتُه كانت بمثابة مشاريع تنظيريةٍ**، إذ اكتسبتْ بعدًا توجيهيّاً أخرجها من حيّز الافتتاحيات المألوفة إلى موقع التنظير الثقافي.

٨ ـ التحرر والتجديد: سهيل إدريس كان وسيظلّ رمزًا للتحرر والتجديد من خلال ما نشره من كتبٍ كان ينتقيها انتقاءً صارمًا، ما أتاح للذائقة العربية أن تتغذّى بأجود الإنتاج الذي كان له دورٌ كبيرٌ في تكريس قيم التجديد والتحرر. ويمكن الاستشهادُ، في السياق ذاته، بالعرف الذي كرّسه في مجلة الآداب من خلال باب «قرأتُ العددَ الماضي» الذي أعترفُ بأنّي تعلّمتُ منه، وأنا طالبٌ في الإعدادي والثانوي، أبجديّاتِ النقد، وكان بمثابة مدرسةٍ للتجديد في النقد العربي.

محمد معتصم: تظلّ رؤيةُ أيّ كاتب رهينةَ الشروط الذاتية والموضوعية المحيطة به. والفترةُ التي تشكّلَ فيها وعيُ سهيل إدريس تميّزتْ بنهوض الشعوب العربية، ومقاومتِها لكلّ أشكال الاحتلال، وسعيِها لقطع دابر التخلّف. ولا يمكن إغفالُ حركة التنوير السياسي والديني والفكري السابقة والممهِّدة لحركة المقاومة في المغرب والجزائر ومصر واليمن... فهذه الحركة أثّرتْ في إدريس، ومنها استقى وعيَه القومي والعروبي. ورغم النشوء المحافظ للكاتب، إلاّ أنّ مقاومةَ المستعمِر ومناهضةَ التخلّف ومحاصرةَ التشرذم العربي جعلت الكاتبَ يشعر بالقيمة الجوهرية للمسؤولية. فالحرية تبدأ من استيعاب دلالتها، الذي لا يقوم إلاّ على تقدير القيمة الجوهرية لمفهوم الذات. ولا يمكن للذات أن تستوعب معنى الحرية إذا لم تكن هي ذاتُها حرةً. والحرية اختيار، أيْ أنّها مسؤوليةٌ ذاتيةٌ قبل أن تكون مسؤوليةً تجاه الآخرين: فالمسؤولية تشترط الالتزامَ ومحاسبةَ الذات معًا.

هذه المبادئ هي مرتكزُ الوجودية السارترية التي سادت فرنسا أثناء وجود الكاتب فيها للدراسة. والمتتبِّع لمسار إدريس يجد ملامحَها باديةً في ترجماته، وفي إبداعه السردي، وفي افتتاحيات مجلة الآداب. **فالمبادئ التي تقوم عليها كتابةُ سهيل إدريس لا تخرج عن مفهوم الحرية، والمسؤولية، ثم الالتزام**. وهي الحركة الفكرية التي امتدّ تأثيرُها على الكتّاب العرب حتى بداية السبعينيات من القرن المنصرم، حيث سيتمّ الانتقالُ من الصراع مع الدخيل إلى الصراع مع أذنابه وبقاياه.

شعيب حليفي: ما يَشْغلني حقّاً هو الإجابةُ على السؤال التالي: هل يمكننا أن نلتقط من كلّ ما قيل، وما سيقال، ما يميِّز مشروعَ سهيل إدريس في هذه المرحلة إلى جانب روّاد النهضة العربية: طه حسين والعقّاد وتوفيق الحكيم ويحيى حقّي وآخرين ممن سُمّوا بـ «جيل التنوير»؟ فسهيل إدريس كان من بين هؤلاء التنويريين الذين أضاؤوا بمساهماتهم العديدَ من المناطق المعتمة في الجسد الثقافي العربي. ومعالمُ المشروع التنويري لسهيل إدريس كانت قد بدأتْ مبكّرةً مع رحلة الدراسة التي حملتْه إلى فرنسا، حيث أنجز أطروحةً لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب بعنوان **الرواية العربية الحديثة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠ والتأثيرات الأجنبية فيها**. وهذه المرحلة شكّلت البذورَ الأولى لمشروعه التنويري المنفتح على ممكنات الحضارة الغربية من أجل تجديد الفكر العربي من دون الانسلاخ عن مقوِّمات حضارتنا وتراثنا.

بنيانُ هذا المشروع الوليد سيَشْمخ عاليًا، بعد ذلك، من خلال اعتكاف إدريس على الترجمة، إيمانًا منه بأنّها المدخلُ الأساسُ لإحداث التغيير الممكن في الحضارة العربية، وإنِ اقتصرتْ ترجماتُه أولَ الأمر على تيارٍ تنويريّ محدّد. وستكتمل ملامحُ تميّز هذا المشروع مع تأسيس إدريس دارَ الآداب، التي كانت وراء

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)
الكاتب، الناشط، المؤسسة

بروز العديد من النصوص الإبداعية التي ساهمتْ في ترسيخ قيم جمالية أرادها أن تكون من بين مقوّمات مشروعه التنويري. وقد أمكن دارَ الآداب تحقيقُ هذه الغاية بفضل انتشارها الواسع في كافة أرجاء الجغرافيا الثقافية العربية، إذ كان يكفي أن تَصْدر عنها روايةٌ حتى يسارع النقّادُ إلى قراءتها وتحليلها.

وما برح سهيل إدريس طيلة حياته ينقّب عن كلّ ما من شأنه أن يقوّي مشروعَه التنويري. فعكف على إنجاز مَعْلَمَته المعجمية الكبرى، **المنهل**، مع المرحوم جبّور عبد النور. وهذا المعجم ما زال إلى اليوم مرجعًا أساسيًا في يد الطلبة والباحثين والنقّاد العرب.

سهيل إدريس، إذن، كان يؤسّس لمشروع أراد أن يَسِمَه في العديد من الجوانب. وكان ينافح عن أفكاره بكلّ حرية ومسؤولية والتزام: فلم يكن أمّعةً أو تابعًا، بل مثقفٌ مستقلٌ غيرُ خانع ولا تابع إلاّ لصوت الحقّ. وكلُّنا يتذكّر جولاته الشهيرة في مجال الدفاع عن القيم المثلى للأمة، وموقفَه من حرب التحرير الجزائرية. كما نتذكّر جرأتَه النادرةَ في مواجهة مواضعات المجتمع وأقانيمه المتحجّرة، وذلك عندما أقدم على نشر **أولاد حارتنا** وهو يَعْلم أنّها ستُمنع في غير بلدٍ عربي، وأنّها قد تكون ذات عواقب وخيمة على الوضع المالي للمؤسسة؛ لكنّ حسّ المثقف النهضوي فيه انتصر على حسّ التاجر، فسَجّل بذلك موقفًا سيظلّ التاريخُ شاهدًا على نبله وجرأته.

ثم إنّ إنتاجه الإبداعي سيظلّ مَعْلمًا من معالم مشروعه التنويري. ولا أدلّ على ذلك من أنّ **الحيّ اللاتيني** ما زالت إلى يومنا هذا موضوعًا للدرس الأدبي، سواءٌ في الثانويات أو الجامعات العربية، وما زالت موضوعَ القراءة والتحليل النقديين من لدن الباحثين لما تتميّز به من حيوية إبداعية ومن راهنيةٍ جعلتا منها بحقٍّ روايةً رائدةً ومؤسِّسة. وإذا كان إدريس قد توقّف عن الكتابة، لأسباب أو لأخرى، فإنّ رؤيته الجمالية وذوقه الفني والإبداعي تجسّدا في رواياتٍ رعاها بنفسه وفَتح لها أبوابَ الوجود والشهرة. **وكأنّي به أراد أن يؤسِّس مدرسةً في الإبداع السردي ليس من خلال اسمه الخاصّ فحسب**، كما هو دأبُ العديد من المبدعين العرب، **وإنما من خلال امتداده أيضًا في أسماء عديدة** تحتكم إلى الرؤية ذاتها وإنِ اختلفتْ لغتُها وطرائقُ صوغها السردي والدلالي.

لبيض: تعقيبًا على ما قاله الأخ محفوظ بخصوص توقُّف إدريس عن كتابة الرواية وربطِها بانحسار القضايا الكبرى، أشيرُ إلى أنّ د. إدريس لم يكن، في ما أحسب، ممن يؤْمنون بانقضاء زمن القضايا الكبرى. والدليلُ على ذلك استمرارُه في النضال الثقافي والفكري والسياسي (السياسي هنا بمعناه النبيل)، ورفضُه الاستكانةَ إلى الانعزال أو الجمود. لكنّ توقفه عن الكتابة جاء، كما إخال، نتيجةً لاطمئنانه إلى أنّ التجربة الإبداعية العربية تشقّ طريقَها بثبات. ولم يكن هو بعيدًا عن هذه التجربة: فقد ظلّ يرعاها ويشجّعها ويدعمها؛ فكان بهذا الصنيع مثقفًا بصيغة الجمع، ومعلّمًا يؤْثر الآخرين على نفسه. ولأنه محارب، فقد كان يكفيه أن تُحشَدَ القوى على جبهة حتى يتركَها ليملأَ بذاته جبهاتٍ أخرى! لم يكن إدريس مهووسًا بتسجيل اسمه في قائمة أكثر الروائيين غزارةً في الإنتاج، مع أنّه لا تُعْوزه في ذلك اللغةُ ولا الأدواتُ الفنيةُ ولا التخييلُ، بقدْر ما كان يرغب في تأسيس تيّار إبداعي يغطّي مساحاتِ الكينونة الثقافية العربية. فكان له ما أراد. **هذا هو سهيل إدريس الذي فَضّل أن يحتجزَه مكتبُه المتواضعُ في مجلة** الآداب **من أجل تقويم إبداعات الآخرين!** حتى إذا غادره وجدْتَه في هذا البلد العربي أو ذاك مشاركًا في ندوة، أو ملقيًا محاضرةً يستعيد فيها قيمَ القومية والالتزام والحرية، أو حاضنًا صوتًا جديدًا. ولعمري إنّ هذا هو الإرثُ الثقيلُ الذي يحمله من بعده أبناؤه، كلٌّ في مجال اهتمامه.

ميزةُ سهيل إدريس أنه كان صاحبَ مواقف مبدئية لا تلين ولا تتزحزح. لكنّه كان كذلك رجلَ الليونة والحوار مع مَن يعارضه. والدليل أنّه فتح صفحات مجلته أمام معارضيه، ما أكسبَ مشروعَه الصدقيةَ والحضورَ المستمرّ. وهذه هي ميزةُ المفكر التنويري الذي لا يعدّ نفسَه وأدواتِه سلطةً لا يعلوها النقدُ ولا التجريح.

ومن مميِّزات المفكّر التنويري أيضًا الجرأةُ والأمانةُ في معالجة القضايا. وقد ظلت هذه الميزة تُلازم مشروعَه حتى سنواته الأخيرة، عندما أصدر سيرتَه الذاتية المثيرةَ والجذّابة، مسلّحًا بالصدق والمكاشفة. ولو قُدِّر له أن يكتب أجزاءً أخرى من سيرته لكنّا أمام عملٍ إبداعيّ ضخمٍ يُسهم، لا محالة، في إعادة تسليط الضوء على مرحلةٍ أساسيةٍ من تاريخنا.

معتصم: عطفًا على ما تفضّل به الأخ لبيض، أُضيف أنّ من مظاهر الفكر القومي العربي إيمانَ الكاتب بالتجديد وبالحداثة في الحياة وفي الإبداع. وهو ما يتجلّى في اختيار دار الآداب لمنشوراتها، وتوضحه أيضًا الأقلامُ التي كتبتْ وما تزال تكتب في مجلة الآداب. **إنّ الانتصار للحداثة موقفٌ يوافق موقفَ العروبة، بل ويرتقي به نحو الأفضل. وهما معًا ينبعان من فكرة الالتزام:** الالتزام بالهوية العربية في مواجهة المدّ التغريبي والتهجين والاستسلام للضعف والشعور بالدونية.

ولقد نهضتْ مجلةُ الآداب ودارُ الآداب بأدوار طلائعية في العالم العربي، لا بالانتصار للثقافة العربية الحديثة فحسب، ولكنْ أيضًا بتحريضها الأقلامَ الشابةَ على الإبداع والابتكار في الفكرة والأسلوب. لذلك فإنّ مجلة الآداب ودار الآداب منارةٌ يهتدي بها الكتّابُ الملتزمون بقضايا الأمة.

محفوظ: أتّفق مع الفكرة القائلة بأنّ سهيل إدريس مثقفٌ شاملٌ يصرِّف مشروعَه بأشكال مختلفة، ولكنّها متضامنة. وأجلى صورةٍ تُظهر ملامحَ المشروع التنويري للرجل تمثّلتْ في معاركه الأدبية والفكرية. وأستشهد هنا، فقط، بمعركته الشهيرة مع أنسي الحاج في مجلة **شعر**، وتدخّله في الصراع العراقي انتصارًا

للقوميين على الشيوعيين. فهذه المعارك، كما تتبدّى لنا اليومَ، لم تكن معاركَ ذاتيةً، بل معاركُ تسعى إلى ترسيخ دعائم مشروعه القومي، الذي كان قد بدأه في إبداعه، وترجماته، وتأسيسه لدار ومجلة الآداب، وفي كتاباته وافتتاحياته الشهرية في المجلة ذاتها.

العثماني: ثمة ميزةٌ أخرى في مشروع سهيل إدريس المتعدّد الأوجه: إنّها قدرته الكبيرة على صياغة المفاهيم. فكثيرةٌ هي المفاهيم التي أنتجها ورحّلها إلى العديد من مناطق العالم العربي حتى صارت جزءًا من المفكَّر فيه. ولآخذْ، مثلاً، مفهومَ «الالتزام.» فهذا المفهوم، الذي شَغَلَ الفكرَ والأدبَ العربيين أكثرَ من ثلاثين سنة، كانت بداياتُه الأولى مع وروده في إحدى ترجمات إدريس لسارتر، لكنه بعد ذلك سيأخذ سَمْتَه العربيَّ ويصبح موضوعًا للنقاش. وللتدقيق، فإنّ عددَ الكتب التي تناولتْ مفهومَ الالتزام في كثير من قطاعات المعرفة وأسقطتْه على الكتابات التراثية وحدها بلغ ما يزيد عن ١٢٠ كتابًا.

بناءً على ما ورد في مداخلة الأخ محفوظ، فإنّ حداثةَ إدريس هي حداثةٌ بيئية. فإذا كانت الحداثةُ في فترة اشتدادها قد جعلتْ من التراث خصمًا، ومن الانفتاح على الغرب مدخلاً أساسيًا للخروج من واقع التخلّف العربي، فإنّ سهيل إدريس أنتج مفهومًا جديدًا للحداثة العربية بدأه أولاً برفضه البقاءَ في فرنسا. وهذا الإلحاحُ في العودة إلى الوطن كان يعني الالتزامَ بقضايا الأمة، والبحثَ من ثم عن حلولٍ ناجعةٍ لها من داخل بنية المجتمع، وذلك من خلال بناء مشروعٍ حضاريّ متكامل المعالم والأبعاد. **إنّ حداثة إدريس حداثةٌ عربيّةٌ، تنطلق من الذات في مساءلة قضاياها، وتعود إلى الذات لتحقيق بنائها السويّ**، على أساسٍ من المزاوجة الدقيقة بين موروث الذات وتطلّعاتِ الراهن وإكراهاته. وهذا المفهوم الجديد للحداثة انتقل إلى العديد من الكتابات العربية، وتطوّرَ في أشكالٍ ومفاهيمَ متنوعةٍ، لكنّ الفضل في ذلك يعود إلى جرأة سهيل إدريس في تقريب أطراف المعادلة.

معتصم: من أجل ذلك كلّه، أيْ من أجل الحرية والمسؤولية والالتزام والعروبة ونشر دعوات الأمل...، ناهضتْ أنظمةٌ عربيةٌ كثيرةٌ مجلةَ الآداب وصاحبَها. وقد توفّي سهيل إدريس والمجلةُ لم تَسلمْ من المناهضة. لكنّ تاريخ الآداب، مجلةً ودارَ نشر، يلاحقها. ولم يستطع كثيرون نسيانَ معاركه وأدواره وفاعليته الحيوية في الضمائر العربية الحيّة منذ أواسط خمسينيات القرن الماضي، خصوصًا أنّ ما طرحه في **الحيّ اللاتيني** حول الصراع بين الشرق والغرب قد زادت حدّتُه اليومَ بعد أحداث الحادي عشر من أيلول بنيويورك، وتمّ التعبيرُ عنه بـ «صراع الحضارات» من أجل هيمنة الثقافة القوية ودحض الثقافة التي ضعف أهلُها عن الدفاع عنها. ويمكن بهذه الفكرة المختصرة هنا إعلانُ ريادة سهيل إدريس، وقوةِ استشرافه للآفاق، وقوةِ حضوره في المرحلة الحالية رغم الموت الذي غيّبه عنا جسدًا.

لبيض: اسمحوا لي أن أسجّل بإيجابيةٍ إشارةَ الأخ معتصم إلى رواية **الحيّ اللاتيني** التي اعتبرها ذاتَ استشراف قويّ يتحقّق اليومَ بعد مرور خمس وخمسين سنة على إصدارها. وأودّ أن أشير إلى أنّ ثلاثية إدريس كانت بمثابة جماع ملامح مشروعه الحضاري التنويري، إذ يُمْكن قارئَها أن يستجمعَ كلَّ القضايا التي نثرها سهيل إدريس في أكثر من شكل تعبيري. وأطلب منكم الآن أن نتحدّث عن الإبداع السردي في مشروع إدريس، بسبب قوة حضوره في تاريخ السرد العربي، ولأنّ شهرة سهيل إدريس جاءت أساسًا من خلال **الحيّ اللاتيني**.

العثماني: أجل، إنّ أحسنَ وسيلة ارتآها سهيل إدريس لتصريف مشروعه هي كتاباتُه الروائية. فهو من بين الروائيين العرب القلائل الذين تركوا رواياتٍ متّسمةً بالتسلسل والارتباط، وذلك في إطار ثلاثيته المشهورة جدًا. وقد استطاع من خلال «سير روائية» أو «روايات سيرية» أن يقوم بحفرٍ في ذات بطل رواياته سامي، وذواتٍ أخرى (هدى، الأم، إلهام راضي، جانين مونترو...). ولمّا كنا نحتفل هذه الأيام باليوم العالمي للمرأة، فإنّنا نودّ الإشارةَ إلى أنّ د. إدريس انتصر انتصارًا كبيرًا للمرأة في رواياته، أختًا وحبيبةً وزوجةً.

لبيض: الانتصار للمرأة في رواياته الثلاث لم يكن محضَ موضوعةٍ، وإنما رسّخه أيضًا في **البنية** الروائية حين سلّمها سلطةَ الحكي.

وأودّ أن أشير كذلك إلى مفهوم الذات في كتاباته الروائية، لأنوّه إلى أنّ النقّاد دأبوا على اعتبار **الحيّ اللاتيني** روايةَ صراع: صراع الأنا مع الآخر، وهو صراع تَدْخل فيه الحضارةُ العربيةُ معتركَ التفاعل مع نظيرتها الغربيةِ من باب السؤال الحضاري الكبير الذي كان روّادُ النهضة قد طرحوه في منتصف القرن التاسع عشر: «لماذا تقدّم الغربُ وتخلّفَ العربُ؟» غير أنّ المتأمّل في هذه الرواية يدرك أنّ الغرب لا يَحْضر فيها إلاّ باعتباره المرآةَ العاكسةَ لحقيقة الأنا في صراعها ضدّ ذاتها. فصراعُ البطل في هذه الرواية ليس صراعَ الذات الحضارية العربية مع الذات الحضارية الغربية، كما في **عصفور من الشرق** للحكيم أو **قنديل أمّ هاشم** لحقّي أو **موسم الهجرة** للطيّب صالح، وإنما هو صراعُ الذات مع جزءٍ ساكنٍ فيها ومتجذّر. إنّ الآخر لم يكن سوى المرآة التي عَكستْ خيباتِ الذات وآمالَها في الولادة من جديد. وفي هذا السياق **حضر الغربُ مساعدًا مَكّن البطلَ من تجاوز عثراته في تحقيق التغيير المنشود**. ولا غرابة، والحالةُ هذه، أن يشكّل فضاءُ باريس العتبةَ الكبرى التي ستَشْهد مخاضَ تجربة ولادة البطل من جديد، وذلك عبر سيرورة تجارب خَضَعَ لها طوال أحداث الرواية قبل أن يقول كلمتَه الأخيرة: «بل الآن نبدأ يا أمي.»

وأختم بالقول: إنّ **الحيّ اللاتيني**، بقدْر ما أنصفت الرجلَ وفتحتْ له بابَ النجومية الإبداعية، ظَلَمَتْه إذ غطّت بشهرتها على القيمة الفنية الكبرى لإبداعاته السردية الأخرى، وأخَصّ بالذكر **أصابعنا التي تحترق** التي يمكن اعتبارُها أفضلَ ما كَتب سهيل إدريس وأبدع فيه ـ تخييلاً، وصياغةً فنية، وقدرةً هائلةً على تجريبِ أشكالٍ خطابيةٍ كانت في لحظتها تشكّل ثورةً في الكتابة الروائية.

سهيل إدريس (١٩٢٥ - ٢٠٠٨)

الكاتب، الناشط، المؤسسة

العثماني: كثيرٌ من النقّاد اعتبروا **الحيّ اللاتيني** عطفًا على **عودة الروح** واستمرارًا لها. وهذا الحُكْمُ فيه كثيرٌ من التجنّي: فهناك فرق كبير بين توفيق الحكيم ذي البعد الذهني التجريدي، وسهيل إدريس الكاتبِ الواقعي المحمَّلِ ببعض الأسئلة الفلسفية التي يبحث لها عن إجاباتٍ على أرض الواقع.

مسألة مفهوم الذات التي أشار إليها الأخ عبد الحقّ تبدو مقحَمةً اليوم في نقاش روايات إدريس. ففي الفترة التي أصدر فيها رواياتِه، وبخاصةٍ **الحيّ اللاتيني**، لم يكن مفهومُ الذات حاضرًا بقوة في تمثّلات الكتّاب أو النقّاد أو الجوّ الثقافي العامّ. ذلك أنّ الثقافة العربية كانت تقف موقفًا حازمًا تجاه مفهوم الذات؛ كما أنّ الاتجاه القومي كان يرى فضيلةَ الفرد المناضل كامنةً في أن يُمحى داخل الجماعة. وهنا أعطي مثالاً من داخل **الحيّ اللاتيني** ذاتِها: فتضحيةُ البطل بحبّه، واقتناعُه بحجج صديقه فؤاد، وتماثُلُ أحكامه مع أحكام أمّه، لم يكن كلُّ ذلك إلاّ انتصارًا للجماعة على إرادة الذات، أي انتصارًا للمؤسّسة الاجتماعية الفاعلة والقوية من خلال تثمين فكرة الامّحاء في الجماعة وضرورةِ إبطالِ الرغبات الذاتية من أجلها.

لكنّنا لا نُنْكر وجودَ احتفاء خاصّ بالذات في مواجهة عبء الجماعة. ففي **الحيّ اللاتيني** تنتصر الذاتُ الحداثيةُ المتنوّرةُ على صورة الشيخ (وهي صورةٌ ستتبلور أكثر في **الخندق الغميق**). إلاّ أنّه احتفاءٌ لم يُطْلق عنانَ الذات ولم يحرِّرْها من مسؤولياتها الاجتماعية: **فهي ذاتٌ تتحرّر من أعباء مجتمع لتنصهر في مجتمعٍ جديدٍ تبشّر به وتعمل على تأسيسه.**

ومن منطلق القراءة الراجعة أستطيع أن أوافق التصوُّرَ الذي ذهب إليه الأخ عبد الحقّ، والذي يركّز على اعتبار روايات إدريس رائدةً في مجال تشييد مفهوم «التذويت،» أيْ تقديمِ العالمِ من خلال الذات، وجعلِ حرية الفرد موازيةً لحرية الجماعة، وجعلِ تحرّر الفرد من القيم الكابحة هو السببَ في وجوده.

حليفي: شخصيّاً أضع قراءةَ المشروع السردي للكاتب سهيل إدريس ضمن القراءة الكبرى للمشروع السردي العربي منذ بداياته الأولى. لذلك فحينما أقرأ **الحيّ اللاتيني** أجِدُني مضطراً إلى مقارنتها بما أُنجز من نصوص منذ منتصف القرن التاسع عشر، وبخاصةٍ «نصوصُ الرحلة» إلى أوروبا، وإلى فرنسا بالتحديد. وفي هذا السياق الكبير يشكّل **الحيّ اللاتيني** ثورةً في الإبداع السردي من خلال إعادة بنائه لرؤية جديدة انطلاقًا من مكوّن الذات، وخَلْقِ أشكالٍ جديدةٍ للصراع. وأعتقد أنّ العديد من الكتابات التي دُوّنتْ حول تجربة **الحيّ اللاتيني** شوّشتْ على الرؤية الجديدة لهذا النصّ...

محفوظ: في إطار قراءة النقد العربي لـ **الحيّ اللاتيني** أؤكّد أنها قُرئتْ في سياقٍ محدّد، ومن ثم جاءت الأحكامُ تعميميةً. إنّ وضع هذه الرواية ضمن «الرواية الحضارية،» أو إدراجَها في سياق تيار رواية **عصفور من الشرق** أو روايات منتصف القرن التاسع عشر، شكّل أكبرَ ظلم نقديّ لها، إذ ربَطَها بموضوعة الذات في علاقتها بالآخر، وربَطها، بالتالي، بسياق السيرة الذاتية.

العثماني: قد يكون ما ذهب إليه الإخوةُ صحيح، لكننا يجب ألاّ ننسى أنّنا نتحدّث عن رواية كُتبتْ في منتصف القرن الفائت. وهذه الفترة تشكّل «الجيلَ الثاني في الرواية العربية،» وهذا الجيل عاش بين الجوانب السيرذاتية والجوانب التخييلية. وقد كانت مؤسّسةُ الرواية ما تزال تتبلور، ولم تتّخذْ حكايةُ عناصر الرومانيسك بعدُ صوغَها الإيجابي. وأذْكر، في هذا السياق، قولاً لجبرا إبراهيم جبرا في حوار له مع مجلة **الجديد**: «كلُّ ما أكتبه هو ذاتيّ، ولو أنصفتُ نفسي لقلت إنّ كلّ ما كنتُ أكتبه ذاتيّ.» فقد يكون ما كتبه سهيل إدريس هو ضربٌ من التأمل في سيرته الذاتية، مركّزًا فقط على العناصر الثقافية والمعرفية التي أثّرتْ فيه. أضف إلى ذلك أنّ تخييلية النصّ لا تتأتّى فحسب من موضوعه، وإنما قد تُكتسب من خلال صياغته اللفظية أو من جانبه اللغوي. فهناك العديد من النظريات التي تقول بأنّ موقع التخييل في الأعمال الأدبية لا يقع فقط على مستوى مضمون الحكاية وانزياحها عن الواقع، بل يمكن أن يتم ذلك على مستوى الخطاب أيضًا.

لبيض: مهما تعمّقنا في استكناه أعماق التجربة الغنية لسهيل إدريس، فسنظلّ مقصِّرين في حقّه. لكننا حاولنا الإحاطةَ بما يمكن أن يميِّز هذا الرجلَ ومشروعَه التحديثي الملتزم، من منطلق إيماننا بالدور المهمّ الذي لعبه الدكتور في مساحة شاسعة من ثقافتنا العربية المعاصرة.

يغادرنا سهيل إدريس وما زال الحلمُ العربي ينتظر صبحَه الجميل. ولأنّ «المعلم سهيل إدريس» كان حالمًا غيرَ يائس، فإننا سنظلّ نحلم، وستظلّ أطيافُه، وأطيافُ مَنْ رحلوا عنّا من رفاقه الذين شاركوه الحلمَ نفسه، تتراءى لنا عن قرب حتى تحتلّ الأفقَ كلَّه، فتشكّل منارةً نستهدي بها في معركة النضال من أجل الحرية والاستقلال، وقهرِ الظلم والتخلّف، ومحاربةِ الاسترزاق الثقافي والتعهّر الفكري.

باسم مجلة الآداب الصامدة، وباسم الدكتور سماح إدريس، وباسمي الخاصّ، أشكر الإخوةَ في مختبر السرديات، التابعِ لكليّة الآداب والعلوم الإنسانية ـ المحمدية، على استضافتهمَ وقائعَ هذه الندوة الفكرية تكريمًا للدكتور سهيل إدريس، وتكريمًا من خلاله لمشروع مرحلةٍ بكاملها كان هذا الرجلُ الشريفُ ناطقَها الصادقَ ومحاربَها العنيد.

*** ملحوظة: عُقدت الندوةُ يوم السبت ٨ مارس ٢٠٠٨ بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية ـ المحمدية، بتنسيق مع مختبر السرديات.**